حـــوار حـــول

الإبـــداع والإتبـــــاع

شخصيات المحاورة:

صونيا: صاحبة المنتدى الأدبي، سيدة ثرية جميلة مثقفة.

سليمان: مثقف يحمـل لــواء العقــل وسيادة قوانينــه.

حســام: شاعــر مبـدع يملك ثقافة موسوعية، محبط.

جوسلين: راقصـــة.

عبـــادة: رسامـــة.

ناصـــر: أستاذ جامعي.

صونيـا:

لــو أستطيـــع
لشهرت سيف البــرق في وجه الصقيع
لصرخت فـــي الحــرف انتفض حـراً
وحـــرّرت الجميــع

هذه غايــة هذا المنتدى، أن يضرم النـــار الموقدة التـــي تطلع على الأفئدة، أن يكون صرخة الحريــة التي تطلق المعرفة من جمــود أصنــامها، وتزرع خضرة التطــور والحداثــة في صحاري التخلف والقهر والارتهان الى عبادة الطواطم، نحن هنا على بساط ريح المعــرفة نطــارد الأفكار الشاردة شرقاً وغرباً، نجذبها الى الوسط الذهبي حيث العدالة هي الاعتدال، والجمال هو التوازن، والخير هو التنسيق بين ما اختلف، والتناغم بين ما تنافر، ليستمتع الجميع بوحدة الوجود، وليكونوا خلايا فاعلة في جسد الانسانية الواحد الموحد، فتجتمع الأشتات وتعــود الحياة الى الأموات.

حســام: منذ سنين وأنت تشهرين سيف الجمــال فــي وجه القبــح، والتنظيم فـي وجه الفوضى، والأناقـة المنسقة في وجه اللامبالاة العبثية، أنت الحضارة يا سيدتي بأبهى تجسداتها، وأنا أدور في مدارك كما يدور القمر في مدار الشمس.

جوسلين: وهل تحسب نفسك قمــراً زاهراً وما فيك من شبه بالقمر إلا بياض فوديك، ألا ترى كيف مالت شفتـاك الى السواد من بقايا ما علق بها من سموم التبغ، ألا ترى الهالة الزرقاء حــول عينيك مــن سهر الليل فــي الأماكن الملوثـة بالعفونة واللزوجة والدخــان، وبعد ذلك تحسب حــالك قمــراً ولا ضــوء فيــك يسطع، فعينــاك زائغتان وجيوبــك فارغة.

عبــادة: فــي بلادنا لا يسطع النــور إلا من الجيــوب المنتفخة وما عــدا ذلك باطــل الأباطيل.

ناصـر: نحن نعيش مرحلة تصحر ثقافي مرعبة، فحتى سيريلانكا تقدم للفكر العالمي أضعاف ما نقـدم، وتستهلك مـن المطبوعات أضعاف ما نستهلك، هـي التي تتضور جوعاً، ونحن متخمون بأموال الذهب الأسود، هذا لعمري أعجوبة الأعاجيب.

سليمان: أن نمتشق سيف الجمـال في وجـه القبح هذا ذروة التطـور الحضاري، أنا شخصياً لا أفهم الجمـال إلا تنـاسقاً وتـوازناً وتناغماً سواء في الانسان الفرد أو في المجتمع أو فـي الدولة أو فـي الطبيعة. كيف يكون الانسان جميلاً إذا لم تتناغم قواه العقلية والعـاطفية والغرائزية لتعزف مجتمعة لحنـاً حضاريـاً يزرع الفرح في كل خلية مـن خلايا الكيان وتنبعث ذبذباته الايجابية لتشنّف آذان جميع مـن يسمع، كيف يكـون المجتمع جميـلاً إذا لم يتوازن الانتاج مع الاستهلاك والنمو السكاني مع النمو الاقتصادي، هل يكـون المجتمع جميلاً إذا دبَّ الصراع بين طبقـاته وأثنياته وأديانه ومذاهبه، هل تكـون الدولـة جميلة إذا لم تتـوازن السلطات فيها وتتنـاغم ويكـون المسؤول مجـرد موظف عند الدولـة يخدمها وهـو في رأس الهرم بنفس المصداقية التي يخدمها وهو في أسفل الهـرم.

صونيـا: أنا أفهم الجمال حـركة دينـامية يجدد بها الانسان ذاتـه، فهـو كل يـوم في إطلالة متميزة عـن إطلالة الأمس، عندما يبـدأ الانسان فـي تكـرار نفسه، فهـو إن تحدث يعلك نفس العبـارات التي قـالها بالأمس، وإن شرب يشرب مـن نفس القنينة التي شرب منها بالأمس ويرنـدح نفس الألحـان، ويغـازل الحبيبة بنفس العبـارات، لعمري هذا شيء يثير التقزز والغثيان.

جوسلين: عندما أعتلي خشبة المسرح أشعـر بالخجـل مـن نفسي والجماهير تصيح نريد نفس رقصة الأسبـوع المنصرم، وأنا أرضخ لطلبـاتهم أحسّ نفسي جـارية من جـواري عصر المماليك، أقصى حلمي أن يرضى عنـي السيد المتسلط، والذي كان بالأمس القريب ليس أكثـر من غلام مخصي يطأه شذاذ الآفـاق، وها هو اليوم حاكم يأمـر وينهي ولا همّ للجماهير إلا أن ترضى بما يرضاه لها وتسلم لإرادته العليا التي نمت وترعرعت في أسواق النخاسة.

عبــادة: عندما أتنــاول فرشاتي وأبدأ برسم لوحــة جديدة، يذهب بــي الخيــال بعيــداً وأسأل نفسي عشرات الأسئلــة، ترى لماذا نفرت حضارتنا من فـنّ الرسم، هل لأن الصور نوعٌ مــن أنــواع الأصنام؟ أنا أتصور الأصنام بلـوكات جامدة لا حركة فيها ميتة لا حياة فيها ترمــز الــى العـدم الــى عتمــة المحــدود، وأفــهم أنّ الله هـو ذلك اللامحدود المطلق الذي امتــلأ به الوجــود، والذي لا يخلــو من نوره موجود، ولهذا تــراني أزرع الحركة فــي كل خطٍ ولــون مـن خطوط لوحاتي وألوانها، وأحاول أن أجعلها حــركةً واعيــةً تهدف لإظهار شعــورٍ معين أو فكــرةٍ معينــة، وأحاول سواء نجحت أم فشلت أن أجعــل الإيحــاء الذي تــوحي بــه الأشكال والألـوان إيحاءً يشلع قضبان قفص المحدود لينفلت باتجاه اللامحدود.

حسـام: لا يوجد جدار بين المحدود واللامحدود نهدمه لننتقل من ضفةٍ الى ضفة، فأنا عندما أنظر الى جوسلين مثلاً وهـي كيانٌ محدود بالحجم والشكل والوزن، أرى فيها اللامحدوود معانقاً المحدود، أرى نجــوماً تدور فــي مدارات عينيها، وشموساً تشرق مــن ابتسامة شفتيها، وتلالاً تنــاطح السحاب فــي استدارة ثدييها، وكثباناً مـن الرمل النقي في اكتناز ردفيها، وأرى بحاراً وجزراً مرجانية وأصدافاً يكمــن فيها درّ نادر، وغــابات نخيــلٍ وصنــوبر ورائحة مسكٍ وعنبــر، باختصار أرى الكـون اللامحدود تجسم فــي كيان محدود، وأرى الكيان المحدود يتشوق لــو تخلــى عـن كثافته ليعانق لطــافة اللامحدود.

نــاصر: نحن بحاجة ماسة الى التغيير، ولكي يكون التغيير إيجابياً يجب فهم مكونات الواقع وفهم بنــائه المعقد والمتناقض وفهم مستوى جــدلية تطــوره أو تقهقره، فلــن تغيــروا إلا ضمن ما وصلتم اليــه، ثم تنتقلون الى مرحلةٍ جديدةٍ إما نحو الإرتقاء أو نحــو الإنحــدار، لا تعيشوا فــي الــوهم، حتى الــوهم مــرتبطٌ بمــدى فهمكم للحيــاة واستيعابكم لذواتكم ومواقعكم في المجتمع الذي تعيشون فيه.

صونيـا: لا تشردوا بنــا بعيداً فنحن لا نملك قــوادم الصقــور وخــوافي النسور، ولا يغرب عن بالكم أنّ موضوع محاورتنا الليلة هو الإبداع والإتباع.

حسـام: جمالك سيدتي الذي هـو كل يـوم فـي شأن جديد، مرة يطل علينا وقوراً من عليائه فترتعش بشراتنا هيبةً وإجلالاً، ومرة يطل علينا وديعاً يزرع الرغبات الملونة في أعيننا، ومرة نرى فيه لمعات بروق العزم والحزم وقعقعة رعود الوعد والوعيد، ومرة نراه ينساب رقيقاً أنسه يجذب ودفؤه يغوي، أليس هذا هو الإبداع بعينه.

سليمان: لا شك أنّ وجـود الجمال ثم تذوقه مـن أهم مصادر الإبداع، فالجمال يجعل الروح تنتصر فـي جدلية صراعها مع الجسد، يجذبنـا الجسد الـى الشهوات التي لا تشبع فكلما أطعمناها طلبت المزيـد، وازدادت جـوعاً وجشعاً، واذا لم تجـد ما تأكله أكلت نفسها لتولد مـن جديد أعتى وأقسى. يفش الجمال الروح بخواصه المبنية علـى مبادئ التوازن والتناغم والشفافية فتتوازن طبائع الروح وتضغط على الجسد لتجبره على تـوازن طبائعه أيضاً، ومن جدليـة هذا الصراع بين النظـام والفوضى والكثافة واللطافة يولد الأبداع لطيفاً شفافاً متوازناً متناغماً ومنجذباً دائماً الى الأعلى، إنه ذلك اللسان الأزرق غير المـرئي لنار الوعي الموقدة والتي هي جوهر إنسانية الانسان.

جوسلين: كلما حاولت أن أدخـل الى رقصي ألواناً جديدة مقتبسة من التانغو والباليه، أجد الجمهور يلـوي عنقـه ويصفر مستنكراً، إنه يريـد الرقص الشرقي التقليدي، لا يرى الرجـل عندنا في المـرأة إلا أردافـاً تهتز وخصراً يتلـوى وأثـداءً تنهد وتندلق وشعراً ينفلش كمروحة صينية، أما أن تحـاول الراقصة أن تطير كفـراشة مع نغـم علـى البيـانو أو تترجم أحاسيسها حركات إيحـائية على نغم ساكسوفون فهذا غيـر مرغوب فيه. حضارتنا الموسيقية هي حضارة الطبل والدفّ والمـزمار والمرأة التي تدغدغ الغرائز وتثير الشبق.. وتتحدثون عن الإبداع.

عبـادة: في منتصف القـرن الماضي كان جمهور الفـنّ يتألف مـن مثقفين وموظفي إدارات ورجال إعـلام وأعمـال كلهم مستنيرين لا يصدر كتاب جديـد بأي لغـة إلا قـرأوه أو ترجمـوه، أما اليـوم فجمهور الفـنّ هـو أغنياء الحرب وبلطجية وشبيحة ومغتربين فـي دول الـذهب الأسود يعيشون الكبت والحـرمان وكذلك وافـدين مـن الطبقات الرثة المزدوجين بنفوسهم، فهم حريصون على تأديـة شعائر أديانهم بالتمام والكمال، يستعبدون نساءهم باسم الطقوس فيفرضون عليهن الحجاب وملازمة البيت وعدم قيـادة السيـارة، ثم ينطلقون لحياة الليـل الصاخبة التـي تتـلاءم مع مستوياتهم

العقلية والنفسية، والمشتغلون بالفـنّ يعطـون جمهورهم مـن بضاعته، ولهذا انحدر المستوى وأصبح الإغـواء وعرض مفاتن الجسد أو الطرائف البذيئة أو الكلام الفاقع هـو سيد الموقف.

ناصـر: مـن يملك القدرة على الإنفـاق والاستعداد للإنفاق هو الذي يفرض شروطه ويحدد المستوى المرغوب فيـه، انه قانـون العـرض والطلب، لم يعـد الطلب علـى الطرب الأصيل والفـنّ المسرحي الذي يحاكي المسرح العالمي، أصبح الطلب هرجٌ ومرجٌ ودفٌ ومـزمار، لقد عدنا الى عهد الجـواري والعوالم وأسواق النخاسة ولكن بأسلوب يتلاءم مع عصر البترودولار.

حسـام: أنا أؤمـن بأن التـراكم الكمي حتماً سيقـود الى قفـزة نوعية، أعداد خريجي الجامعات أضعاف ما كان عليـه بالأمس، صحيح أنّ المستويات الأكاديمية تراجعت، ولكن التـوسع الأفقـي لا بـدّ أن يـولد منه تـوسع عامودي، نحن على أبواب تغيير وشيك، أنا شخصياً على الأقل تزداد نسبة قرّائي بإطراد، فديواني الأخير هذه طبعته الخامسة وقد نفذت، والدواوين السابقة طبعت أيضاً عدة مرات.

جوسلين: هذا لأنك فـي أكثر قصائدك تدعـو النساء الى تملك أجسادهنّ والحـقّ في وهبها لمن شئنَ والتمرد على نفـوذ الرجـل، وبناء الشخصية المستقلة الحرّة التي لا يسمح لأحد بإلغاء عقلها أو التطاول على قرارها الحرّ المستقل.

عبـادة: حسام بطل من أبطال معركة تحريـر المرأة العربية من السجن الذي اعتقلت فيـه بحجة أنها عـورة، كل عضو مـن أعضاء جسدها له جـاذبيته التي تثير شهـوة الرجـل، ولذلك يجب أن تبقى تحت المـراقبة والحجر، وهي بحاجـة دائماً الى ولـي أمر، حسام صور المرأة حرّة مريدة تملك شخصيتها المستقلة، تمارس الحب بطهارة وكأن الحب صلاة وقـربى من الله ولا تسمح لنفسها بأن يكون جسدها رهينة أو دمية أو سلعة، حسام جعـل العلاقة بين المـرأة والرجل تقـوم على مبدأ الرغبة المشتركة النابعة مـن احترام متبادل وثقة متبادلة وقواسم مشتركة في التفكير والرؤى والأحلام والأذواق، وعندما يأتي الجنس يأتي جميلاً شفـافاً طـاهراً يخلـو من الكذب والنفـاق

والابتزاز والاستقواء والاغتصاب، يأتــي دائماً كنتيجة وليس كمقدمة وغـاية مسبقة، بربكم أليس هذا هــو الإبــداع؟

سليمان: العــلاقة الجدلية بين المــادة والطــاقة هي عــلاقة تحرك وتغيير مستمرين، تتشفف المــادة فتغدو طــاقة، وتتكثف الطــاقة فتغدو مـادة، وهذا يدل أنّ الحركة هي جــوهر هذا الوجود والتغيير قانون أساسي من قوانين الطبيعة، وتبقى المسألة مسألة سرعة التغيير أو تباطؤه، أما في الاجتماع والاقتصاد والأفكار فقد ثبت بالتجارب أنّ إطــار النظام الديموقراطي هــو الأكثــر قدرةً وطواعيةً لمبدأ التغيير لأنه مبني على مبــدأ تداول السلطة وترك الأفكار ذات الأفق المسدود وإستيلاد أفكار أفقها مفتوح . لقد أصبح هنــاك شبه إجمــاع أنّ كل النظم السياسية والدينية التــي أدلجت عقــائدها ووقفت عندها على أساس أنها هي الحقيقة ولا حقيقة خـارجها، أنها نظم ساهمت في مصادرة عقــول النــاس وحــرياتهم وأماتت فيهم نــزعة الإبــداع لأنها حــولتهم الى مخلوقات بلهاء تجتــرّ نفس المفــاهيم وتعلك نفس الأفكار، بل تحولت الأفكار عندهم الــى مجــرد شعــارات فأصبحت ظاهــرة صوتيــةً وفكراً خطــابياً يعتمد التــرغيب والترهيب، يخاطب المشاعر والغرائز ولا علاقة له بالعقل ومنطق العقل.

صونيـا: لا شك أنّ الأنظمة الديكتاتورية عرقلت مسيرة الإبداع فهي بالدرجة الأولى حولت الانتساب الى الجامعات من مبدأ الكفاءات الى مبدأ الاستزلام للنظــام، فكانت النتيجــة مجموعــة مــن الخــريجين المسخ الذيــن يصلحون كمــوظفين تابعيــن ولا يصلحون كمبدعين، وعندما أدلجت العقيدة السياسية وجمــدتها إنقلب الفكـر السياسي من فكر جدلــي خلاق الى عبــادة الأشخاص وعلك أقـوالهم وكأنها مقدسات فتجوفت اللغة وغدت أشبه بثرثرة نساء الأفران.

ناصــر: ولكن الداهيــة الدهياء كانت مع الأنظمة الدينية لأن تلك الأنظمة انطلقت من مبدأ الفصل بين التطــور التكنولوجي والمفــاهيم الإجتماعية، فغدت المــرأة في بيتها تستعمل أحدث مبتكرات العصر وبنفس الوقت تعتبر عــورة لا يجــوز لها أن تقابــل الرجــال أو تحاورهم أو تنكشف عليهم لأنها تثير شهواتهم، بـل لا يحق لها أن تخلع حجابها لا خــارج البيت ولا داخله، بــل لا يحق حتى لزوجها أن يراها عارية أو أن يشاركها الحمام أو حتى يجالسها على مائــدة الطعام. وحتى أولادها يصبحون رقبـاء

عليها فتختلط عاطفة الأمـومة بالحذر والخـوف لأنها تتعامل مع أولادها كما يتعامل المـرء مع أجهزة المخابرات، وفي هكذا أنظمة يعتبر النـاس أنّ كل حقائق الوجـود موجودة فـي كتابهم المقدس، وأنهم لم يعودوا بحاجة الـى أي معرفة خارجية لتعينهم على اكتشاف الحقيقة فيفقـدون رغبتهم فـي القـراءة والاطـلاع والاستكشاف، إنهم يرددون كل يـوم نفس الكلام ويسمعون كل يـوم نفس المواعظ ويرندحون كل يـوم نفس الأناشيد.

عبـادة: فـي هكذا واقـع يعتبر كل إبـداع نوع من الزندقة وخروج عن مبادئ العقل الجمعي، وبالتالي يعتبر المبدعون إما خوارج وإما كفرة وإما عملاء لحضارة غريبة تحاول بشتى الطرق تدمير حضارتهم، فيهبّون هبّة رجـل واحد للدفاع عن أفكارهم العتيقة وكأنهم يدافعون عـن مقدسات.

جوسلين: لقد اتخذت قراراً بهجر مهنتي قبـل أن أصبح فـي أذهان الناس مادة إغواء رخيص، ولقد أعددت العـدة لافتتاح معهد لتعليم الباليه وتدريب الراغبين على أحدث نماذج رقص التانغـو ومـن يعش سيرى كيف أننـي سأحدث تطـوراً كبيراً في فـنّ الرقص، وسأزيـل عـن جبين هذا الشرق لعنة هـزّ الأرداف وإسقاط الأمـوال بين الأثـداء.

سليمان: كل أنـواع الطقوس التي تمـارس يوميـاً أو أسبوعياً أو حتى في المناسبات تجعل الانسان يـراوح مكانه، ومن ليس على زيادة فهو حتماً على نقصان. أن تردد نفس الكلمات ونفس العبـارات ونفس الحـركات كل يـوم وكل أسبـوع لعمـري هذا إستعباد بقيود معنوية غير منظورة تحوّل الانسان الى ببغاء، ولعل خير من عبر عن تلك المأساة شارلي شابلـن في أفلامه الصامتة. ولما كانت الأديان قد حولت مفاهيمها الجـوهرية والتـي كانت غـايتها مساعدة الانسان علـى التحكم بشهواتـه وغرائـزه العدوانية لتجعل منـه كائناً إجتماعياً عالمياً يرى سعادته في عيون الآخرين ويترابط معهم كما تتـرابط حلقـات السلسلة، لما كانت قـد حـولت هذه المفـاهيم السامية الى طقـوس روتينية وعادات تكـرر نفسها تولـد عن ذلك جمود في المشاعر والأفكار، ومع مرور الزمـن أصبح الأمر نوعاً من عبادة الأصنام، تعلك الأفواه الكلمات دون أن تتفاعـل معها فتغـدو الكلمات لا طعم لها ولا لـون ولا رائحـة، وما يطبـق على

الأديان يطبـق على مبادئ الحـزب الواحـد الذي يغتصب الحكم فيصفي أعداءه في العقيدة ثم يعـود ليصفي مفكـري عقيدته ليحـول أفكـار القائـد الى شعارات مجوفة ويكرس عبـادة الفـرد، وتحصر الحقيقة بالكتب التي تصدر عـن الفـرد الحـاكم أو بالخطابات الموسمية التـي يتلقفها أساتـذة المدارس والجـامعات والتلامذة والجنـود والعمال وتصبح علكة في الفم وقيداً في اليد وهكذا تتخشب اللغة ويموت الإبداع.

صونيـا: كل شيء يفـرض نفسه في طقوس جامدة هو نوع من أنواع الاستبداد الذي يسـاهم فـي إضعاف القـدرة على التفكير المتـزن والمتوازن والقـدرة على الإبداع، الإتباع قاعدة أساسية مـن قـواعد قوانين الطبيعة، فكل الموجودات والمخلوقات غير العـاقلة موجودات ومخلوقات تسيرها قـوانين جبرية، ولهذا يمكن أن نقول أنّ البشر الذين يسلكون مسلك الإتبـاع أي إتباع رؤساءهم وحكامهم وطقوسهم وعاداتهم أقرب الى الطبيعة الجامدة أو الطبيعة الحيوانية منهم الى الطبيعة الانسانية.

حسـام: هناك شيء إسمه الذاكـرة وهناك شيء إسمه العقل، وظيفة الذاكرة أن تحفظ المعلومات سواء كانت مقـولات أو صور أو انطباعات. عنـد الشعوب التي يحكمها الاستبداد يتـوقف التعليم على الذاكـرة وتقـاس كفاءة المتعلم بكمية ما خزنته ذاكرته وما هـو مستعد لإعادته عند الطلب، ولهذا كان أولئك النـاس إتباعيين فهم يتبعون ما حفظوه وخزنوه في ذاكراتهم. أما وظيفة العقل فهي أخذ تلك المحفوظات من الذاكرة وتفكيكها وتحليلها الى عنـاصر أوليـة ثم تركيب معـان جديـدة فيها من القديم بعض عناصره التي تخدم تجسيد الرؤيا الجديدة في ذهن المبدع.

فـي الأنظمة الاستبدادية التي أدلجت عقـائدها، غدا القائد وحده الذي يملك الحقّ في التحليل والتركيب مـن جديد وعلى البـاقين أن يـرددوا ما يقـوله قائـدهم بالحـرف والكلمات والحـركات، وتكـون حظواتهم على قدر تقيدهم بحرفية النصوص، وعلى هـذا الأساس توزع المراكـز وتبنى تـراتبية الوظـائف، فـي هكذا أوضـاع تصبح المحافظة على مركزية الحكم ومنهجيته هي الأساس وما عدا ذلك مجرد وسائل.

ناصـر: وعند هذه النقطة تبـدأ الأكاذيب والخزعبلات فتصـدر الأنظمـة إحصاءات عـن زيـادة الإنتاج وتعميم الخدمات وإرتفـاع نسبة الدخل القومي وتوزيع الإعانات

علــى العمــال والفلاحين فــي بطــاقات، فالتعليم مجــاني وفـوقه المنــح المــدرسية والجــامعية، والطبابة مجانية والنقل العام متيسر للجميع والحدائق العامة منتشرة في كل مكان. أمــا الحقيقــة فالجمــاهير ممسوكة بعنقــها تعيش على حافة الفقر والتعليم نصفه على الأقــل تكــريس لقدسية الحــاكم والمرجعية الدينية، وما يقال أو يكتب هو مجرد ترديد لما قــاله الحاكم وأفتــى به المرجع الديني، منشورات كثيرة جعجعة ولا أرى طحناً. هذه هــي حصيلة الإتبــاع الأجساد تنفتح على آخـر إبداعات التكنولوجيا والعقــول فــي متحف الأفكــار السلفيــة تطـعم المقــولات الخشبية، والإيــديولوجيات المسدودة الأفــق.

عبــادة: لا شــك أنّ الإبــداع يتطلب أنظــمة ديموقراطية ترتكــز علــى مبـدأ التغيير المستمر نتيجة تـداول السلطة بين القوى المتنافسة على التطوير وخدمة الخير العام، حيث لا تنافس تهدأ الحركة حتى تتلاشى، ويصاب المجتمع بالجمود فيتراجع الانتاج ويندحــر المجتمع باتجــاه البطالة والفقــر والتصحر الثقــافي.

جوسلين: ولكن المنــافسة البناءة التي تثمر التطور في الانتاج المادي والفكري يجب أن تقف تحت مظلــة المصلحة العليــا للمجتمع، وإلا أصبحت منــافسة علــى الفسـاد والاهتــراء والاستئثار بالمغانم كما نجد لذلك نماذج في دول العالم الثالث ونحن منها والحمدلله.

سليمان: المشكلة أنه فـي دول العالم الثالث وخصوصاً في منطقتنا الشرق أوسطية لا يوجــد تمييز واضح بيــن السلطة والــدولة مــن النــاحية القانونية. فالدولة بمفهومها القــانوني الحديث هــي دولة غير دينية تحترم جميع الأديان وتتعامل معها بالتساوي دون أي تفــرقة أو إنحيــاز، وكذلك الــدولة في مفهومها القانوني الديموقراطي دولة غيـر عرقية تتعامل مع جميع الأعراق بالتساوي، ونحن في هذا الشرق العتيق نصر أن نضع الدولة تحت مظلــة دينية أو عــرقية أو حتى قبلية أو حتى تحت مظلـة بيت واحد نضع على رأسه إكليل القــداسة ونسلسل نسله حكــاماً مختــارين الى الأبد. في هكذا واقــع كيف تطلبــون تــداول السلطة بين متنــافسين على خدمــة الخيــر العــام والمصلحة العــامة، كيف تطلبون التغيير النــابع عن حــركة دينامية تنبثق من داخل كيان المجتمع، وأخيراً كيف تطلبون الإبداع.

صونيا: حتى لو حصلت بعض ملامح التغيير عندنا فهي تأتي بدفع من حركة خارجية تفرض على المجتمع فرضاً وليس حركة دينامية من داخله، وهكذا تغيير يكون فقط في القشور دون الجوهر وهو معرض في أي لحظة للتوقف ساعة يتوقف الدفع الخارجي.

ناصر: تتحدثون عن الديموقراطية التي يسير التغيير في ركابها وكأنها منا قاب قوسين أو أدنى، كأننا خبرناها وعجمنا عودها، لبناء هرم الديموقراطية بدأنا البناء برأس الهرم ونسينا أنّ هناك أساساً مدفوناً تحت الأرض تليه قاعدة على سطح الأرض، ثم يعلو الهرم مدماكاً إثر مدماك حتى نصل الى الرأس الذي هو اختيار ممثلي الشعب بنظام إنتخابي حرّ تتساوى فيه المرأة والرجل. نحن لم نتذوق من الديموقراطية إلا نظامها الانتخابي الذي مارسناه مغشوشاً يتناهشه الإقطاع السياسي والديني والمالي ويتوزعونه حصصاً لا علاقة لها بالشعب وتمثيله. الديموقراطية أيها السادة هي مناخ حضاري تربوي يبدأ في البيت بطريقة تعامل أفراد الأسرة مع بعضهم ثم في المدرسة وأنظمتها ومناهج تدريسها ومسلكيات أساتذتها وإدارتها وتلاميذها ثم بالجامعة ثم بسوق العمل، نحن لا نملك من هذا شيئاً فالأسرة عندنا لا زالت كولنيالية الرجل فيها هو السيد والمرأة والأولاد ضمن ممتلكات هذا السيد، والمدرسة عندنا أستاذ يتصرف في صفه كما يتصرف الحاكم العسكري على كرسي سلطته، لا يحقّ للطالب الحوار ولا النقاش ولا حتى الاستفهام، والمعلم يحشو ذاكرته بالمعلومات غير المعللة التي لا يربطها رابط، ويقيّم التلميذ على مدى حفظه لهذه المعلومات أو عدم حفظه، ولا يسمح له بأي تحليل أو تفسير أو إستنتاج، والجامعة كل أستاذ يطبع كور لمادته ويمنع الطلاب من الاستفادة من أي مرجع آخر، وكتابه يبقى هو ذاته لعشرات السنوات، والاستاذ يعلك نفس العبارات لعشرات السنوات، ولا مراكز أبحاث ولا من يحزنون، وأطروحات الدكتوراه إذا نشرت كانت مثار سخرية في أغلبها، فأزلام النظام يلفقون أطروحاتهم في الداخل والخارج ويأتون مسبحين بمجد حكامهم ليتبوأوا كراسي الأستذة، أما سوق العمل حيث الدولة هي ربّ العمل الأكبر حدِّث ولا حرج وهكذا ينهار الانتاج المادي وتتصحر العقول ويصبح التذاكي هو الذكاء والدهاء هو العقل والاستزلام هو العبقرية الخلاقة.

حســام:

يـــا أمـّــةً قد فقـــدت تبيـــانها

إذ جعـــلت دليلهـــا عميـــــانها

كيف تتــوقعون إبداعاً من شعوب تعيش يومياً عقدة الشعور بالذنب وهي تستغفر ليل نهار لتسامح علــى ذنب لــم ترتكبه ولا تعرف مــا هــو، شعــوب تضع نفسها بشكل متواصل في قفص الاتهام وتصدر الأحكام المتواصلة على نفسها بأنها مذنبة تستحق أقصى العقـوبات إلا إذا الله عفــى. وبمــا أنّ التــواصل مــع الله ليس متيسراً تصبح المعــادلة إلا إذا عفـى من يمثل الله، وكلكم تعرفون من يمثل الله على الارض رجال كهنــوت متمرسين باستغلال الأوقــاف الدينية وابتــزاز النـــاس بتنمية إحساسهم بعقد ذنــوبهم، وبالتـــالي يعيش الانسان رغبتين متنـــاقضتين، رغبتــه في النهل من ملذات الدنيا المادية بأقصى درجات الشراهـة والجشع، ورغبته في أنه مذنب خاطئ يتوسل المراجع لكي تغفر له خطاياه بالدعاء والتملق والانكسار وإتباع الطقوس والفرائض، والانسان فــي هـــاتين العـــاطفتين المتناقضتين، الرغبـــة في اللذة من جهة واعتقادها حراماً مــن جهة أخــرى، وتمني الجنــة والإستئثار بالحصول عليها بإتباع الفرائض والطقوس مـن جهة والخوف الدائم من غضب السماء من جهة أخرى كل ذلك يميت بذرة الإبـداع التي لا تنتعش إلا بمناخات الصداقة والحب والبوح بمكنونات المشاعر والأحاسيس ومحـــاورة الآخــرين فـــي الظـــاهر علـــى سطح النفس وفـــي الباطن في أعماقها وفي حريـة ممارسة الانسان ما يؤمن به ويعتقده ويرغب فيه ويشتاقه بحرية تامة دون خجــل أو مــواربة أو خــوف.

سليمان: إذا انطلقنا مــن مقــولة أنّ الانسان خليفـة الله على هذا الوجود، يترتب على ذلك أنّ أولـــى واجبات الانسان تجــاه نفسه هو تحقيق إنسانيته، وواجباته تجاه الكون هــو اكتشاف قوانين الطبيعة وتسخيرها لما فيه تطوره وارتقاءه.

ناصــر: وكيف يحقق الانسان إنسانيته فــي مجتمــع إستهلاكي تحكمــه الــرأسمالية المتــوحشة التي لا همّ لها إلا الربــح حتى ولــو كان ذلك على حساب تدمير الانسان وتدميــر الطبيعة.

جوسلين: وكيف يحقق الانسان إنسانيته طــالما أنــه يصرف غــالب جهــده لإشبــاع شهواته ورغباته الجسدية متجاهلاً روحه وعقله وحتى عاطفته.

عبــادة: وكيف يحقق الانسان إنسانيته طــالما سيف المــوت مسلط فوق عنقه وهو لا يستطيع ضمان بقائــه حيــاً ساعات بــل دقائق.

صونيـا: مــن الصعب أن يحقق الانسان إنسانيته إلا إذا عـاد الى قانون الفضيلة الذي وصفه أرسطو والذي يقـول أنّ الفضيلة هــي وسط بين رذيلتين الإفـراط والتفريط، وأعطى مثلاً على الكرم والشجاعة، فقال أنّ الكرم هو فضيلة لأنه وسط بين رذيلتين البخل والتبذير، وكذلك الشجاعة هي وسط بين رذيلتين الجبن والتهور.

سليمان: لو عــدنا الــى قانــون العــدالة الذي هو التوازن بين القوى المتنافرة لما فيه الخير العام، لكان ذلك أفضل ولكان ذلك هو الإبداع بعينه، فالانسان الذي يوازن بين قــواه الثلاثة الغريزة والعاطفة والعقــل هو الانسان العادل، والمنهج الذي يحقق ذلك هــو المنهج الواعي، وفي هذا النطاق أنا شخصياً أعتبــر أفلاطون سيد المبدعين في التاريخ الذي نعرفه.

جوسلين: وهل نسيت الأديان وما قدمته في هذا المجال.

عبــادة: وهل نسيت العلوم والفنون والآداب وأخيراً منجزات التكنولوجيا.

صونيـا: الإبــداع هــو أن ينــاضل الانسان بأقصى جهده لإزالة العـوائق التي تعرقل مسيرة سعيه لتحقيق إنسانيته، وأولــى هذه العــوائق هي تصوره بأن السعادة تقتصر علــى الملذات الجسدية وذروتها التملك والتسلط وتصدر المجـالس، وفي هذا المجال ما قاله سليمان فــي التوازن هو الحل الصحيح، إذا ما استطعنا أن نبني ثقافة ومناهج تربوية عملانية تساعد على تجسيد فكرة التوازن.

سليمان: هنــاك أيضاً عــوائق علــى صعيد البنية الاجتمــاعية، يجب علــى المبدعين التصدي لها كالعادات والتقــاليد التي تحد من حرية التفكير والتعبير، وتجعل الانسان الفرد عبــداً للعقــل الجمعي ولفكرة القطيع.

حســام: لا يـوجد أخطر مــن فكرة القدر عائق يحدّ من تطور الانسان ورقيه وقدرته علــى الخلق والإبــداع، ونحن في هذا الشرق العتيق نتلذذ بالايمــان أنّ الانسان عبد للقضاء والقــدر، فهــو إذا نجح ماديــاً أو معنــوياً فالفضل يعــود للقدر وليس لجهده، وكذلك إذا فشل فلأنــه وقــع فريسة القدر، لقد تلذذ الشرقيون بتصنيف أنفسهم كعبيد للقــدر، واعتبروا هذا الايمــان فضيلة، فبــرأوا أنفسهم مــن أي تقصير أو مسؤولية، لأنهم ليسوا أكثــر من أوتــار تعزف عليها أصابع القدر اللحن الذي تشاء.

سليمان: لا أدري لماذا فهم الشرقيـون أديانهم بأنها تحتقر الحياة الدنيا وتجعلها مجرد دار عبــور لا تستحق أن نعيــرها أي اهتمام جـدي فهي فانية زائلة سميت دنيا لأنها دنيئــة، وأصحاب النفوس الشريفة يجب أن يترفعوا عن كل ما يمت اليها بصلة، هذا المعتقد الخــاطئ ساعد الحكام المستبدين على مزيد من الاستبداد، فالشرفاء لا يهمهم من أمر الدنيا شيء.

والأوفياء يمكن إرضاءهم بكسرة مــن خبــز وجــرعة من ملذات، ويمكن استعبادهم بدغدغة شهواتهم وتخديــر أحــلامهم. ثم أتت المرجعيات الدينية فجعلت من الانسان إبــن الخطيئة، فهو مذنب سلفــاً حتــى يثبت العكس بالتــوبة والارتهــان للمرجعيات والرضوخ للأوامر وحرمان النفس من أي رغبة أو طموح في التغيير، فطاعة أولي الأمر جـزء من طاعة الله، والاعتراض على الاستبداد إعتراض على إرادة الله، فالله لا يعطي النــاس إلا ما يستحقونه، وهــو أعلم بعبــاده وحاجاتهم وأحوالهم منهم، ولقد أنــزل عليهم كتباً مقدسة فلم يعودوا بحاجة الى إجهاد أفكارهم للوصول الى الحقائق، فالحقائق أمامهم في كتب مبينة تكفيهم جميع مهماتهم.

جوسلين: لقد تفننت المـرجعيات الدينية في حقلي التحليل والتحريم، فالموسيقى حرام لأنها تدغــدغ الشهوات ويجب الاكتفــاء بالاستماع الــى المواعظ والتراتيل المقدسة، حتــى أنهم تفننوا فــي التحـريم فجعلوا الاستماع الى أصوات الحساسين والبلابل من

المحرمات، والتصوير حـرام لأنه ضـرب مـن ضروب محـاكاة الأصنـام، وكذلك النحت. أمـا الشعراء فهم مـن الغـاوين للناس بالرذائـل عبـر تهييج أشواقهم للحب الحـرام، والفلاسفة زنـادقة يريدون إعادة كل شيء الى العقل وتحويل الله الى مجرد متفرج، باختصار لقـد أغلقـوا كل أبواب الابداع.

سليمان: فـي هذا المجـال حـذار أن تتصوروا الإبـداع عملاً فردياً متوحداً مع ذات صاحبه فقط، فالابـداع بالدرجة الأولـى عمـل جمـاعي والمبدعون فريق أكثر منهم أفـراد، وهنـا علينا أن نسأل أين مراكز الأبحاث في جامعاتنا ومؤسساتنا الصناعية، أيـن المختبرات أيـن المجـامع العلمية واللغوية والأدبية التي تترجم وتعرّب وتنشر وتسـوّق، أين الأيـادي الخفية التي تـرعى المبدعين ليكتفوا شرّ الكدح من أجل لقمة العيش كي ينصرفوا بتركيز الى مشاريعهم الإبداعية.

حسـام: إذا صادف وجـود أجنبي فـي مناسباتنا الدينية يظـن الأحـداث التي نحييها حصلت الأسبوع المنصرم، وعندما نقـول له أنّ مـا يشاهده صوراً وأحداث حصلت قبل قرون تأخذه الدهشة بل الرجفة، نحن نعيش في الماضي لأننا نخاف من مواجهة الحاضر والتخطيط للمستقبل، نلبس ثيـاب عمالقة الماضي ونحن لسنا أكثر من أقزام الحـاضر، نعزف على أوتـار الماضي ألحـان المجد والفروسية والحب ولا نمـلك فـي حاضرنا إلا طبلاً ومزمار نتلوى على ضجيجهما، نكتب العبارات التي لا يربط بين كلماتها رابـط وندعي أننـا نقلد السرياليين والوجوديين ونستلهم نظريات فرويد وأدلـر، مصيبتنا أننا نملك فكـراً يقـوم علـى التلفيـق فنـأخذ بعض أفكـار الحاضر ومنجزاته ليبرر بها مقـولات المـاضي ومعتقداته، صدقوني إذا قلت لكم أنه يستحيل الإبـداع في أجـواء التـوفيق والتلفيق، الإبـداع إعصار يقتـلع الأوثان والأصنام من جـذورها، الإبداع يدمر عبادة الحرف وعبادة الأشخاص ولا يفتش لها عن مبررات، الإبداع ثـورة علـى العـادات والتقاليد والقـوالب الجاهزة وعلك الصوف، إنه حركة دينامية تنبع مـن داخـل الذات، إنـه فعـل وليس ردة فعـل إنه الإرادة الانسانية التي تقـول لجبل الفقـر والجهل والتبعية انتقل فينتقل.

الجميع: الإبـداع هـو الارادة الانسانية التـي تقول لجبل الفقر والجهل والتبعية انتقل فينتقل.